الألفاظ الهندية المعرّبة

من مظاهر الوحدة :

الدكتور محمد يوسف
أستاذ اللغة العربية - جامعة كراتشي (باكستان)

امتازت الهند منذ أقدم العصور بوفرة وتنوع انتاجها النباتي والحيواني والمعدني كما انها اشتهرت بجودة الصناعات المختلفة المرتكزة على ذلك الانتاج الطبيعي ، ثم هي تصاقب من الناحية الشرقية بلاد الصين التي اختصت بطائفة اخرى من الحاجيات والكماليات التي لم يكن للعالم الغربي بدمنها ، ومن هنا نشأت « التجارة الشرقية » التي تنافس عليها المتنافسون من الفرس والعرب والروم ، واخيرا اقوام اوربا الغربية ، اعني البرتغاليين والفرنسيين والهولنديين والانجليز ، وقد استمرت هذه التجارة العالمية تجري من الشرق الى الغرب حتى غير مجراها الآلات والمخترعات الحديثة وما ادت اليه من الانقلاب الصناعي والتقدم الاقتصادي في الممالك الغربية .

لقد كان لهذه التجارة اثرها الفعال في مداولة الايام بين الناس ، فمثلا يقول العلامة بارتولد : « صارت ايران مزاحمة قوية للدولة الرومانية في زمن الساسانيين ... واستولت **برا وبحرا على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر** ، وبهذا الحادث يبتدىء انتقال التفوق في الحضارة من اوربا الى الشرق الادنى » (الحضارة الاسلامية ، 1950 ، ص 4) . كذلك يعتبر اهتداء واسكو دي كاما (Vasco da Gama) الى طريق الهند نقطة التحول في العلاقات بين الشرق والغرب ، وحقا لئن كانت صفقة تفوق صفقة أبي غبشان في الخسارة والغبن ، فهي تلك التي جعلت اسد البحر ابن ماجد يقود رائد البرتغاليين الى ميناء كاليكت (Calicut) في سنة 1498 م .

فاثر تجارة الهند والصين في التطورات السياسية بين الامم الشرقية والغربية معروف عند كثير من المؤرخين بابرازه وتقدير خطورته ، الا ان هناك ناحية اخرى طالما بقيت غامضة مطوية لم تلق الاهتمام اللائق بها الا منذ زمن قريب ، الا وهي تأثير العلاقات التجارية بالهند وما وراء الهند في حضارات الفرس والعرب والروم في العصور القديمة والوسطى ، ولا اجد ما اتقدم به لهذا الموضوع احسن مما كتبه البروفسور هيرن (Heeren) العالم المتخصص في العلاقات التجارية الدولية القديمة وهذا نصه :

"Of all the divisions of Asia the southern, containing the territory of Hindustan, is distinguished by the richness and diversity of its productions. Here we not only find, with very few exceptions), all the products of other parts of civilised Asia, but so great a variety peculiar to its own climate, that it would appear as if a new and more beautiful creation had sprung up under the hand of nature. Nearly all the spices, which become necessary to mankind in exact proportion to the progress of luxury and refinement, have at all times been peculiar to this region, while two of the most important articles used in clothing, viz., cotton and silk, were first produced here, and continue to be so in an especial degree, though their cultivation has been gradually extended to other countries .... The influence which an intercourse with India may have had on the civilisation of mankind, is a question worthy the close attention of the philosophical student of history; and one which, not withstanding the important illustrations it has of late received, has been by no means sufficiently elucidated, It is of the greatest consequence to ascertain the channels through which, at various periods, it found its way, or into which it was conducted; and the whole course of history tends to prove that the countries which became the staples or depots of this commerce, uniformly attained a high degree of opulence and refinement; which, however, gradually changed the habits and corrupted the manners of their inhabitants; at the same time that these were softened, sowing among them the seeds of luxury, and consequently of decline and ruin." **A. H. L. Heeren: Historical Researches into the Politics, Intercourse and Trade of the principal Nations of Antiquity,** Oxford, 1833, vol. I, pp. 35-56.

اذن كان من اثر تجارة الهند ان تطورت سبل المعيشة واساليب الحياة ، بل وتغيرت الأمزجة والطباع لغير واحد من الشعوب القاطنة غربي الهند، وغني عن القول أن العرب ، بالاشتراك مع الفرس سكان الخليج الفارسي ، كانوا ، بطبيعة مركزهم الجغرافي ، اكثر تلك الشعوب اتصالا وحرصا على الاحتفاظ بدورهم فى حركة استيراد المنتجات الهندية المختلفة ونقلها عبر اراضيهم الى شواطىء البحر الابيض المتوسط ، ولئن كنا نأسف حقا لعدم وجود المصادر اللازمة للحصول على معلومات وافية عن نشاط العرب فى هذا الميدان فيما يتعلق بالعصور السابقة للاسلام ، ففي وسعنا ان نتلافى هذا النقص بالرجوع الى لغة العرب وآدابهم (1) ودراستهما دراسة مقارنة الى جانب اللغات الهندية مثل ما فعل العلماء الافرنج بشأن دراسة علاقات الروم بالهند ، وبما أن العرب كانوا فى موقع وسط بين الروم والهند فقد القت بحوثهم اضواء على العلاقات العربية الهندية الا انها ، بطبيعة الحال ، اضواء جانبية فقط ، اما موضوع العلاقات العربية الهندية بالذات فقد بقي مغمورا مجحودا لا لشيء الا لعدم اتساع علم اللغويين الاول والمعنيين بالمعرب والدخيل فى العربية الى الهند ولغاتها ، نراهم — وكثير منهم ينتمون الى اصل فارسي — يقتصرون على ارجاع الكلمات الى الفارسية ، وفى بعض الاحيان يقفون حائرين امام كلمات لا يجدون لها اصلا بالفارسية فيأتون بتعليلات من الخيال (2) ان دلت على شيء فهو أن الكلمة عدت غريبة فى نظرهم ، واخيرا لفتت دراسات الغربيين النظر الى هذا الموضوع الشيق فاقبل عليه العلماء الهنود بجد واهتمام ،

وفعلا اثمرت جهودهم ثمرة طيبة من حيث انها مهدت الطريق امام الباحثين فى المستقبل الى ميدان واسع بكر .

/*/

هناك ثلاث طرق سارت عليها تجارة الهند الى موانىء البحر الابيض المتوسط :

---

1) يقرر الاستاذ هيرن هذا الاصل بقوله :

"We too often find curselves without the information necessary to follow the course of trade into the most remote regions; but when we meet with the mention of articles which are unquestionably peculiar to certain countries, we are warranted in concluding that a communication then existed with those countries, though we may be unable to define its nature and extent. A piece of sugar or a morsel of pepper in a neglected corner of a villageinn would be a certain proof of the trade with either Indies, even if we possessed no other evidence of the commerce of the Dutch and English with these countries." Heeren, 139-40.

2) راجع مثلا تحقيقنا عن « الفالج » و « القلقي » والكلام على « الشال » فى الصفحات التالية .

1) برا من الممرات على الحدود الشمالية الغربية للهند الى بلخ ، ثم على خط سير القوافل شمال صحراء كرمان الى المدائن الى انطاكية والموانىء المجاورة لها .

ب — بحرا من الساحل الغربي للهند الى الخليج الفارسي مصعدا بالفرات ثم برا الى انطاكية والموانىء المجاورة لها .

ج — بحرا من الساحل الغربي للهند الى ساحل عمان الى ساحل اليمن ومن هناك اما على طول ساحل البحر الاحمر او على خط سير القوافل الى موانىء سوريا وفلسطين .

غني عن القول ان الطريق البري استخدم قبل ان يستخدم الطريقان البحريان ، وفعلا وجد علماء الآثار ما يؤكد ان العلاقات بين ارض الانهار الخمسة (البنجاب) وارض الرافدين ترجع الى عشرات القرون قبل عهد التاريخ المنتظم (3) الا ان التجارة عن هذا الطريق كانت عبارة عن انتقال البضائع من قبيلة الى اخرى ضد احوال طبيعية صعبة وكانت ايضا متارجحة لعدم استقرار الاحوال السياسية ، ولذلك كان التحول الى الطريق البحري ايذانا بزيادة ملحوظة فى التبادل التجاري بين البلدين .

والدليل الموثوق به على جلب البضائع برا من الهند فيلة (4) على مسلة (Shalmanassar) (858 — 824 ق . م) ذكرت باسم غير معهود فى الآشورية هو (Baziati) عن السنسكرتية (Vasita) وبما ن الفيلة ذكرت الى جانب « الابل من (Bactria) ذات السنامين » يتاكد لدينا انها نقلت بالطريق البري عبر الحدود الشمالية الغربية للهند (5) .

ولا باس بان نقف قليلا عند ذكر « الابل من « Bactria » فى القرن التاسع ق.م فنلاحظ أن من اشهر واعز اصناف الابل عند العرب « البختية » وهي على حد قولهم « الابل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج » (اللسان) والفالج : البعير ذو السنامين... يحمل من السند للفحلة (الصحاح) وصف الفالج بهذه الصفة ابن حوقل سنة 350 هـ (6) والمقدسي سنة 375 هـ حيث يقول هو الآخر :

(من خصائص السند) « الفالج الذي تراه بالمشرق وفارس يولد البخاتي وهو أعظم من البخت له سنامان مليح لا يستعمل ولا يملكه الا الملوك ولا تكون البخت الا منه » (7) .

والفالج كلمة سندية محلية والجيم فيها علامة العجمة لا غير مع أن بعضهم لم يعد مهم التعليل بأن الفالج « يسمى بذلك لأن سنامه نصفان » (المخصص 68/7) ! ! ! وكذلك البختية « دخيل فى العربية اعجمي معرب » (اللسان ومثله فى المخصص 135/7 عن صاحب العين) . اذن فما هو اصل الكلمة ؟ لم ينصوا عليه بل ربما لم يهتدوا اليه حتى أن بعضهم اجترا على القول بأن الكلمة عربية (انظر اللسان) ... على كل حال ما من شك فى ان « البختية » لم تكن غير « الابل من « Bactria » .

ومن الجدير بالملاحظة ايضا فى هذا الصدد ان اصحاب المعاجم قد فرقوا ، جريا على عادتهم ، بين مادتي « بخت » و « بختر » الا أن مشية الجمال البختية طوال الاعناق ذات السنامين هي اشبه شيء بمشية الخيلاء وقد جرت العرب على هذا المنوال فى قولها «تفختت» من مشي الفاختة (المخصص 109/3) ومن الثابت ايضا انها كانت تصف النساء « بالبخت » قال الشاعر :

وفيهن من بخت النساء سبحلة
تكاد على غر السحاب تروق (9)

---

3) Wilson: The Persian Gulf, p. 28

4) الفارسية « pil » السنسكرتية « pilu » الا أن بعض العلماء يذهبون الى أن هذه الكلمة ليست أصيلة فى السنسكرتية . انظر « Elephant » Hobson-Jobson, (Supplement,

5) Kennedy, J.; Early Commerce of Babylon with India. JRAS, 1897, p. 242-288

6) المسالك والممالك ص 231 .

7) احسن التقاسيم ص 482 .

7) احسن التقاسيم ص 482 .

8) انظر Dozy: Supplement

9) سمط اللآلي 351 .

أما العلاقات التجارية البحرية بين المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي الى البحر الأحمر وبين الهند فمن المقطوع به انها راسخة فى القدم الا ان الأدلة فيما يتعلق بالفترة السابقة لسنة 700 ق.م ليست بكثيرة ، من اهمها :

1 — ورد فى الكتابات التي ترجع الى ما قبل 2000 ق.م أن الاكاديين كانوا يستوردون الاخشاب من (Magan) اي عمان ، ويرجح أن تلك الأخشاب انما كان اهل عمان بدورهم يجلبونها من الساحل الغربي للهند (10) .

2 — كلمة (Sindhu) الواردة فى مكتبة (Assurbanipal) (668 — 626 ق.م) انما يرجع أصلها الى الهند وهي تعنى « القطن الهندي » ومنها العبرية (Sadin) والعربية « سدين » (11) .

3 — كلمة « Karpas » العبرية توافق السنسكرتية « Karpasa » .

4 — فى القرن العاشر ق.م استعان سليمان ، جريا على سياسة أبيه داود ، بالفينقيين لتنشيط حركة الملاحة والتجارة بين ميناء (Ezion Geber) (العقبة) (12) و Abhira = Ophir أعالي الساحل الغربي للهند (13) وتعد الكلمات الآتية من آثار هذه الحركة التي كانت ولا شك اقدم بكثير من عهد سليمان ، ولم يكن منه الا أن جعلها مباشرة بعد أن كانت تجري على أيدي وسطاء كثيرين :

1 — العبرية« Shen Habbin »= « سن الفيل » (العاج) عن السنسكرية « ibha-danta » .

2 — العبرية (almug) (14) عن السنسكرتية والتاملية (valgu) .

3) العبرية (Koph) القردة عن السنسكرتية (Kapi) (قارن المصرية القديمة (Kafu)] .

4 — العبرية(thuki-im)عن التاملية(tokei-togai) وعنها الفارسية والعربية « طاووس » .

هذا بالاضافة الى الذهب والفضة والاحجار الثمينة التي تتألف منها قائمة البضائع المستوردة من الهند على ذلك العهد (15) .

ولا يخفى أن هذه الأدلة ، قليلة كما هي ، قد تناولها بعض العلماء بالتجريح والرفض (16) الا انهم فى الوقت نفسه اكدوا أن عدم توفر الدليل لا يعني وجود ما يمنع التجارة البحرية ، بل بالعكس امتاز الدراوريون (Dravidians) سكان جنوب الهند منذقديم الزمان بالاتجاه الى الملاحة .

ومنذ القرن السادس ق.م ينقشع الظلام وتتوفر لدينا الأدلة القاطعة على ازدهار التجارة البحرية ، منها :

1 — العثور على قطع من الساج (المرهتية (Sag)] وغيره من الاخشاب الهندية فى قصر نبخت نصر (Nebuchadnezzar) (604 — 562 ق.م) وفى معبد اله القمر الذي جدد نبخت نصر بناءه بـ(Ur) .

2 — انتشار عدد كبير من البضائع الهندية فى اليونان حيث كانت ترد عن طريق بابل ولا تزال

---

10) انظر Wilson: The Persian Gulf, p. 27 ولعل Magan هي « مزون » بالعربية .
11) H. J. Rawlinson: Intercourse Between India and the Western World, Cambridge. 1926, p. 2-3
12) لقد أمكن تحديد الموقع بتل الخليفة غربي العقبة على اثر الأعمال التي قامت بها بعثة أمريكية هناك اثناء 40 — 1938 م .
13) اختلف كثيرا بشأن Ophir بعضهم قرأوا الكلمة Sophir « سوبارة » بالهند أيضا أو « ظفار » باليمن أو « سفالة » الزنج ، الا ن المرجح انها كانت بالهند .
14) نوع من الخشب الثمين ، الصندل الاحمر على الأرجح راجع Cheyne : Ency. Biblica
15) Rawlinson, pp. 10-11
16) فى مقدمة هؤلاء الأستاذ J. Kennedy الذي مضت الاشارة اليه .

اسماؤها اليونانية والعربية ترشدنا الى أصلها فمثلا :

السنسكرتية (Chandan) = العربية (صندل) .
التاملية (Arisi) = العربية (الأرز) (17) .
التاملية (Karppu) = العربية (قرفة)
التاملية (Inchiver) = العربية (زنجبيل) .
التاملية (Pippali) = العربية (فلفل) .
السنسكرتية والتاملية (18) Vaidurya
= العربية (بلور)
السنسكرتية (Kirmi) = العربية (قرمز)

فهذه هي بعض الكلمات الهندية الأصل التي دخلت اللغة اليونانية عن طريق بابل فى الفترة التي نحن بصددها (19) .

وقد بحث العلماء عن التطورات التي ادت الى نمو التجارة البحرية بين بابل والهند فى القرنين السابع والسادس ق.م فوجدوا أن تلك الظاهرة توافق تنكيل (Sennacherib) بالكلدانيين واحلال الفينيقيين محلهم فى سنة 694 ق.م لأن الكلدانيين الذين سكنوا « سيف البحر » (20) منذ القرن التاسع ق.م لم يكن لهم من التفوق فى الملاحة ما كان لأقرانهم الفينيقيين الذين جلبهم الملك الآشوري من أعالي دجلة والفرات وعلى هذا يمكن القول بأن شجاعة الفينيقيين وخبرتهم بأعمال الملاحة والتجارة التي اكتسبوها فى موطنهم الغربي هما اللتان تغلبتا على مخاوف البحر الهندي (21) . ومن ناحية اخرى نجد فى المصادر الهندية الراجعة الى هذا العهد ولاسيما المجموعة المسماة بـ « Baveru Jataka » قصصا عن التجار الهنود (اغلبهم من الدراويين الذين مضى الالماع اليهم) قيل انهم اثاروا اعجاب أهل بابل بالغراب تارة وبالطاووس تارة اخرى .

ولا يفوتنا فى هذا المقام التنويه بأن تجارة الهند هذه كانت السبب الرئيسي فى رخاء بابل وعظمتها التي بلغت أوجها فى هذا العصر حتى أثارت حسد فرعون مصر (نخاو) (Necho) 612 — 596 ق.م) فما كان منه الا أن بذل الكثير من الاموال والارواح فى سبيل اعادة بناء القناة الموصلة من النيل الى البحر الأحمر، تلك التي كان افتتحها لأول مرة (Sesostris) فى القرن العشرين ق.م .

*/

وقد كان لهذه العلاقات ايضا اثر خالد فى أربع من اهم نواحي الحضارة فى الهند :

1 — الخط البراهمي (Brahmi) ، الذي تفرعت منه الخطوط الهندية المختلفة، انما كان من أصل سامي قوي الشبه بالحروف الفينيقية الى درجة تؤكد انه دخل الهند عن طريق الساحل الغربي على أيدي التجار الفينيقيين وقد حدد الدكتور بوهلر (Dr. Bühler) تاريخ دخوله الهند بسنة 800 ق .م ومع أن هذا التحديد لا يزال موضع نقاش الا انه من البديهي أن الخط لابد أن يكون قد مضى عليه قرون قبل أن يتطور فيتلاءم مع مقتضيات اللغات الهندية كما يبدو

---

17) الرز والآرز والرنز لغات فيه (* الانجليزية « Rice ») وقد اتجه بعض العلماء اخيرا الى الاعتقاد بأن المركز الذي انتشر منه الأرز فى العالم هو التركستان ولذلك قالوا ان أصل الكلمة هو « virinzi/virinza » بالفارسية القديمة = « briinj » بالفارسية الجديدة = « vrihi » بالسنسكرتية .
انظر : Sir George Watt: The Commercial Products of India London, 1908, p. 824 etseq.
وليعلم ان كلمة اخرى مماثلة « البهط : الأرز يطبخ باللبن والسمن خاصة » هندية ايضا كما جاء فى المخصص 3/5 واصلها « bhata » .

18) بالبراكرتية « Vailurya » انظر : « Beryl » Hobson-Jobson .

19) Rawlinson, p. 14

20) « Sealand » الوارد ذكره فى الكتابات المسمارية والممتد من مصب الفرات الى Dilmun = البحرين (فارس نامه لابن البلخي تذكارجب، 1921 م ص 140) ويظهر ان العرب كانوا يعنون بـ « السيف » هذا السيف الغربي للخليج الفارسي خاصة ، قال الأخنس بن شهاب :

لكيز لها البحران والسيف كله وان يأتها بأس من الهند كارب (المفضلية 41 / 9)

21) راجع مقال Kennedy السالف الذكر .

فى الكتابات التي يرجع عهدها الى القرن الثالث ق م وهي أقدم الكتابات التي عثر عليها فى الهند (22) .

2 — نظام منازل القمر المعهود عند الهنـــود انما هو مأخوذ من بابل . (Nakshatras)

3 — يرجح الاستاذ كينيدي (Kennedy) أن الهنود انما اقتبسوا نظام التعامل بالعملة المعـــروفة بـــ « Puranas » مما كان متبعا عند أهل بابل (23) ولا يخفى أن (Puranas) اقدم عملة عرفت بالهند وقـــد استمر التعامل بها الى عهد قريب ، ويرى كاتب هذا المقال انها هي المعنية بـــ « الفهري » عند مسعر بن مهلهل (24) و « القنهري » (تصحيف « الفهري » أو « الفنهري ») ، عند المقدسي (25) .

4 — يتبين بعض العلماء علاقة ما بـــين الاوزان الهندية القديمة وبين مثيلاتها عند أهل بابـــل مثـــل « المن » اذ أن أمرها مشكوك فيه جدا (26) .

*/

فى سنة 538 ق.م : امتدت سيطرة الفرس على بابل وغرب آسيا كلها وامتازوا بالجمع بين مصر من جهة ووادي السند من جهة أخرى فى جوزتهـــم الا ان هذه الميزة ، التي لا يمكن التقليل من اهميتها ، لـــم تستخدم ، كنتيجة للمنازعات السياسية ، لتسهيـــل التبادل بين المناطق الثلاث (البنجاب وبابل ومصر) التي كانت أهم مراكز التجارة الدولية ، ومن ثم يعتبر هذا العهد ـ عهد الأخمنيين (Achœmenians) الذي امتد الى ظهور الاسكندر (القرن الرابع ق.م) — عهد ركود على الرغم مما هو معروف عن دارا الأكبـــر (521 — 485 ق.م) — انه جهز وحدة بحرية تحت قيـــادة (Scylax) اليوناني للسفر وتفقد الأحوال من نهر السند الى مصر كما أنه أنشأ قناة من النيل الـــى السويس وارسل من هناك سفنا الى فارس .

لكن العلاقات التجارية بالهند كانت قد توطدت الى حد أنها ابت الا ان تتخذ لها مجرى آخر (27) ، فان الفرس لما لجأوا الى التنكيل بأهالي بابل وتخريب مواليهم وسد دجلة والفرات ما كان من الكلدانيين ، الذين قد عرفناهم من قبل ، الا أن نقلوا انفســـهـــم ونشاطهم الى (Gerrha) (على شاطىء الحسا) (*) التي سرعان ما أصبحت مدينة تجارية معروفة ، وبعد قليل ظهر اليمنيون كمنافس قوي للكلدانيين فى هـــذا الميدان فاتخذوا من (Mouza) = موخا وقنا (Kane) وعدن مراكز لهم ومالبثوا أن جذبوا اليها معظم تجارة الهند وافريقيا الاستوائية أيضا بالاضافة الى التجارةفى انواع الطيب المحلية من جنوب جزيرة العرب وكلما تدفقت هذه التجارة على خط سير القوافل من اليمن الى الشام — ذلك الخط الذي ربما سارت عليـــه بلقيس لزيارة سليمان — اشتهر قوم سبأ بالثـــروة والبسطة اللتين ضرب بهما المثل . وسنرى كيف ان فقدان هذه التجارة أدى الى خراب العمران الـــذي أصبح هو الآخر مضرب المثل .

*/

فى النصف الثاني من القرن الرابع ق.م. قلـــب الاسكندر الاوضاع ببسط سلطانه الى حدود السنـــد

---

22) Cam. Hist. of India I, pp. 140-142 وانظر ايضا دائرة المعارف البريطانية « Sanskrit » كذلك الخط الخروشتي الذي انتشر فى المناطق الشمالية الغربية للهند كان من اصل سامي آرامي .

23) راجع الجزء الثالث من مقاله الذي سبقت الاشارة اليه .

24) البلدان لياقوت « الصين » : « درهمهم (اهل كله) يزن ثلثي درهم ويعرف بالفهري » .

25) احسن التقاسيم 482 — فى نسخة « الفهري » وليعلم ان المقدسي نفسه ينص على القنهريات غير « القاهريات » أو « القندهاريات » (كما عند ابن حوقل 228 والاصطخري 173) = كل درهم منها خمسة دراهم .

26) Rawlinson, p. 15

27) لعل تحول تجارة الهند عن طريق الخليج الفارسي الى طريق البحر الأحمر كان قد بدأ فى عهد نبخت نصر ويعلل ونسنت Vincent تخريب ذلك الملك لمدينة صور بهذا السبب نفسه . انظر Wilson, p. 33 .

*) بحذاء هجر فى الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع « العقير » وهي الآن ميناء صغير وعلى مقربة منها خرائب يعتقد العلماء انها موضع (Gerrha) = جرهاء . (الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 140/1) .

وسرعان ما ابدى اهتمامه باعادة النشاط التجاري بين ساحل البند والخليج الفارسي فأرسل بعثة استكشافية لهذا الغرض تحت قيادة (Nearchus) على غرار ما كان فعله دارا الاكبر من قبل الا ان موته حال دون القيام بأي عمل آخر في هذا الشان. أما خلفاؤه الذين اقتسموا المملكة بينهم فقد شغلوا بالحروب الاهلية حتى ان السلوقيين (Seleucids) لم يكن يهمهم غير الحصول على الفيلة من الهند عن طريق ايران كما ان خصمهم في مصر بطليموس الثاني كان معنى بجلب ذلك الحيوان من الحبشة لاغراض حربية ولكن الى جانب ذلك نلاحظ ان العلاقات بين ملوك الهند من جهة وملوك الشام ومصر من جهة اخرى كانت في هذه الفترة اكثر توثقا من ذي قبل ، لا ادل على ذلك من وفود (Megasthenes) و (Dionysius) سفيرين لسلوكس وبطليموس على الترتيب لدى بلاط جندر كبت موريا (Chandragupta Maurya) ومما يذكر عن ملك الهند هذا انه اقام عددا من الموظفين للاتصال بالاجانب والسهر على راحتهم اثناء زياراتهم للهند ويستنتج من هذا كله ان التجارة بين الهند والخليج الفارسي لم تكن قد وقفت او هبطت الى درجة كبيرة، ثم ساعدت الاحوال السائدة بأعالي الخليج على تركيز هذه التجارة في ايدي اهل Gerrha الذين ربما كانت تتألف اغلبيتهم الآن من العرب وفي نفس الوقت كان نشاط سبأ في ازدياد مستمر وقد شاركهم في هذا النشاط النبطيون بأعالي البحر الاحمر ، اولئك القوم الذين ما كانت عاصمتهم الرقيم (Petra) لتنال شهرتها في التاريخ لولا انها وقعت موقعا هاما على خطي سير للقوافل من اليمن ومن العقبة (Aelana) ايضا .

*/

لقد اتضح مما سبق ان مصير سبأ ورخاءها وحضارتها كانت مرتبطة ارتباطا تاما باستمرار تجارة الهند على الخط البري المحاذي لساحل البحر الاحمر الى اسواق الشام ، وفعلا نرى تجار سبأ حريصين حرصا بالغا على الاحتفاظ بهذا الخط الى حد ان الروم واليونان كانوا يعتقدون طوال هذه المدة ان المنتجات الهندية التي كانت تنقل اليهم عن هذا الطريق كانت من منتجات اليمن المحلية (28) . ويجدر بالملاحظة في هذا المقام ان الاخطار الشديدة التي كانت تحدق بالملاحة في البحر الاحمر فوق عدن من عدم وجود موانىء صالحة وقلة الماء والقرصنة وما اليها كانت من اهم العوامل التي جعلت من الخط البري الطريق المفضل قرونا عديدة ، الا ان اليونانيين كانوا دائما يبذلون محاولات جدية للتغلب على تلك الصعاب من قاعدتهم في مصر مما جعل اليمنيين يرقبون تصرفاتهم بيقظة وحذر ، فمثلا لما عمد بطليموس الثاني (285 — 246 ق.م) ، الذي كانت سلطته تمتد الى فينيقية وفلسطين ، الى اعادة فتح القناة القديمة بين النيل والسويس (Arsinoe) اولا وانشاء الطريقين الصحراويين من (Koptos) الى (Berenike) ومن (Koptos) الى (Myos Hormos) ثانيا احدث ذلك رد فعل قوي بين اليمنيين . على كل حال اقصى ما توصل اليه اليونان ، بعد هذه الجهود المضنية ، هو ابتياع البضائع الهندية من حين الى آخر في الموانىء اليمنية ، خاصة (Mouza) ، ثم نقلها الى (Koptos) كما مر بدون ان يتسنى لهم الاستغناء عن وساطة سبأ ومن المعتقد ان النساء والكلاب والثيران والابقار والتوابل الهندية المحملة على الجمال ، تلك التي ازدان بها الموكب التاريخي لبطليموس الثاني سنة 271 — 270 ق.م انما وصلت الى عاصمة مصر بعد اعادة شحنها في الموانىء اليمنية . نعم وقد برز في هذه الآونة ايضا اسم جزيرة ستوطرة (29) كسوق دولي هاجر اليها واستوطنها اليونانيون (30) للمشاركة في تجارة الهند والحبشة .

فخلاصة القول ان تجارة الهند ما زالت تتحول من الخليج الفارسي الى البحر الاحمر منذ بداية عهد الفرس الاخمنيين ، بل وقيل ذلك منذ ايام بخت نصر الى ان اصبح الطريق الاخير هو الطريق الرئيسي في القرن الثاني ق.م وفي هذه الفترة بالذات اي منذ انتقال الكلدانيين الى (Gerrha) بدأ العرب سكان المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية والجنوبية

---

28) Hitti : Hist. of the Arabs, p. 48

29) السنسكرتية « Dvipa Sukhatara » اي جزيرة السعادة.

30) يقول ابو زيد السيرافي ، سلسلة التواريخ ، باريس 1845 ، ص 133 — 134 ، ان الاسكندر هو الذي اهتم باسكان اليونانيين تلك الجزيرة تحقيقا لرغبة ارسطاطاليس في الاستيلاء على منابت الصبر بها .

يمارسون هذه التجارة ويستولون عليها أكثر حتى اصبحوا محتكرين لها يعضون على احتكارهم بالنواجذ ولم يستطع عملاؤهم اليونان ، مع شدة قلقهم ، احداث اي تغيير جوهري فى الوضع حتى القرن الثاني ق.م.

*/

ولكن ما كاد القرن الثاني يقترب من النهايةحتى حدث ما كان فى الواقع بداية لنهاية أمر العرب وهو أن ملاحا هنديا غرقت سفينته فوصل فى قارب النجاة الى الساحل الغربي للبحر الأحمر حيث تولى الخفر نقله الى الاسكندرية ، وبينما هو فى تلك المدينة وقد أخذه الحنين الى الوطن اذ التقى بـ (Eudoxus of Cyzicus) الذي كان له باع فى علم الجغرافيا ، ولم يمض وقت طويل حتى تواعد الاثنان وحصلا على موافقة الملك (Euergetes II) ومساعدته للقيام برحلة الى الهند وقد تم ذلك فعلا ما بين 120 — 110 ق.م (31) فرجع الملاح الهندي الى أهله بعد أن دل يودوكسس على الطريق الى الأرض التي كان يسمع عنها اليونان أن بها « أشجارا تنبت الصوف » و « أحجارا تذوب فى الفم فتكون أحلى من التين ومن العسل » (القطن والسكر على حد تعبير Herodotus, Megasthenes) على الترتيب) .

ولم تكن نتائج هذه الرحلة ، التي كانت الأولى من نوعها ، لتضيع على الملاحين اليونان فقد اتبعها يودوكسس نفسه على الأقل برحلة أخرى وما من شك أن آخرين حذوا حذوه من حين لآخر لانا نفاجأ قبل مضي فترة طويلة بسبق الملاح اليوناني ، المتمثل فى (Hippalus) ، على العرب الى الاكتشاف عن طريقة استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى السفر الى الهند ايام الصيف . من المؤكد ان العرب لم يكونوا يجهلون الرياح الموسمية ، كفى دليلا على ذلك أن الكلمة العربية « موسمية » هي التي انتقلت وتطورت الى (monsoon) لكنهم ، لسبب ما ، لم يكونوا قادرين على استخدامها ابانهياج البحر فى فصل الصيف بالذات (32). مهما يكن من أمر فان ما امتاز به اليونان كان كشفا عظيما ادى الى انقلاب خطير فى طريق الملاحة والتجارة ويؤرخ هذا الكشف ـ كشف (Hippalus) ـ فى سنة 45 م الا أن بين ايدينا ادلة على تغلغل اليونان وكثرة ترددهم على المناطق التجارية بالهند قبل ذلك، منها ايفاد بعثة من قبل الملك (Pandion) بأقصى جنوب الهند (33) الى (Augustus) بمصر فى سنة 20 ق.م ، كذلك شهادة استرابو (Strabo) الصريحة بأن 120 مركبا سارت الى الهند فى سنة واحدة (25 ق.م) من ميناء (Myos Hormos) ، ثم لا يخفى أن حملة (Aulius Galus) على اليمن فى عهد (Augustus) نفسه سنة 24 ق.م لم تكن الا حلقة فى سلسلة الخطوات لانتزاع تجارة الهند من أيدي العرب (34) . وذلك بالتواطؤ مع النبطيين شركاء سبأ الذين سبقت الاشارة اليهم ، لكن الحملة فشلت فشلا ذريعا وظل مركز العربقويا وكان ناقوس الخطر قد دق والخراب يتسرب الى اليمن رويدا رويدا .

وبمناسبة ذكر الملك (Pandion) لا بأس بأن نستطرد قليلا لنضرب مثلا للفائدة التي تعود على الادب العربي من الدراسات المقارنة فنقول ان مملكة (Pandye) بأقصى جنوب الهند قد اشتهرت من قديم الزمان بمغاصات اللؤلؤ الواقعة فى المياه الضيقة بين ساحل الهند وجزيرة سيلان وجاء عنها فى الأساطير الهندوكية أن الاله كرشن (Krishna) جمع اللآلىء من انحاء العالم وركزها فى تلك المنطقة لتتزين بها ابنته ملكة (Pandye) . لقد ذكر (Megasthenes) المغاصات والأسطورة المتعلقة بها (35) كما لم يغفل الاشادة بها أحد من الزائرين لتلك المنطقة فى جميع العصور من بينهم سليمان التاجر (36) وماركو بولو(37)

---

31) انظر : Rawlinson, p. 96-99

32) سيجد القارىء بحثا قيما عن هذا الموضوع فى: George Fadlo Hourani
Arab Sea-faring in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 25

33) Pandya = « Pandion » هذا هو التفسير السائد وقد ذهب البعض الى أن المراد به « Porus » (Kadphises I) بالمنطقة الشمالية الغربية انظر : Rawlinson, p. 108

34) انظر : Hitti, p. 46

35) Cam. Hist. of India

36) سلسلة التواريخ ص 120 .

الا انه كان بهذه المنطقة ميناء هام ربما سار اسمه مع اللآلي التي كانت تصدر منه وهو (Kolkai) (38) وبما أن مياه البحر انحسرت وابتعد الساحل من موقع هذا الميناء اثناء العصور القديمة نفسها اختفت الاشارة اليه فيما عدا المصادر اليونانية الراجعة الى الفترة التي نحن بصددها ، ثم مضت قرون فاجأنا على اثرها الشاعر العربي علقمة بقوله :

محال كأجواز الجراد ولؤلؤ
من القلقى والكبيس الملوب (39)

كذلك قول ابن الرومي ايضا :

يفتر ذاك السواد عن يقق
من ثغرها كاللآ القلق (40)

« القلقي » ؟ = الـ (Kolkai) لا غير . لكن انظر ما جاء عنه فى اللسان « القلقي ضرب من الحلي، قال ابن سيده : ولا ادري الى اي شيء نسب الا أن يكون منسوبا الى القلق الذي هو الاضطراب كأنه يضطرب فى سلكه ولا يثبت .. » ! وفى بعض الاحيان الجأت الحيرة النساخ الى التحريف : « القلعي » بدل « القلقي » ــ الا أن الأمر لم يزل مغلقا .

لقد سبق أن رأينا ما كان لـ (Gerrha) من شأن كبير فى التجارة الدولية ، يبين لنا (Eratosthanes) (276 ــ 194 ق.م كيف أن اهلها ــ ولاشك أن غالبيتهم كانت من العرب ــ كانوا يقومون بنقل انواع الطيب والبضائع الأخرى المجلوبة من جنوبي جزيرة العرب والحبشة الى بابل و (Seleucia) كانوا ينقلونها بالقوافل البرية وربما ايضا بالسفن التي كانت تصعد بدجلة الى (Seleucia) نفسها (41) وقد كان لهم نصيب من تجارة الهند ايضا مع أن معظمها كانت قد تحولت الى اليمن والبحر الأحمر . ومن الجدير بالملاحظة أن هؤلاء التجار الوسطاء على ساحل الخليج الفارسي استمروا فى اعمالهم ونشاطهم طوال قرون عديدة بدون أية محاولة للتدخل من قبل السلوقيين اللهم الا ما كان من (Antiochus III) الذي اغار على (Gerrha) حوالي سنة 205 ق.م لكنه سرعان ما رضي بالرجوع قانعا بالغنائم والهدايا من البضائع التي كان الأهالي يتجرون بها ولا يخفى أن السلوقيين كانت لهم تجارة واسعة بالهند عن طريق البر (ايران) وهكذا ظل الحال ايام البارثيين (Parthians) الذين استولوا على بابل والمدائن ما بين 140 و 130 ق.م فهم ايضا قصروا اهتمامهم على تجارة الهند (والصين ايضا) عن طريق البر فقط (42) وقد كانت تكفي لتدر عليهم ارباحا طائلة . على كل حال لم يحدث فى منطقة الخليج الفارسي مثل ما حدث فى منطقة البحر الأحمر من منافسة اليونان للعرب .

*/

لم تكد دعائم الامبراطورية الرومانية تتوطد فى سوريا وفى مصر قبيل بدء التقويم المسيحي حتى نعمت البلاد بالاستقرار وتأمين السبل والقضاء على القرصنة مما ادى الى شدة الاقبال على سلع الكماليات المستوردة من الهند والصين فى روما والاسكندرية والمدن الأخرى ، ولذلك يعتبر القرن الأول المسيحي ازهى عصور تجارة الهند بالغرب ، أما التطورات التي كانت قد حدثت فى سير هذه التجارة بالنسبة الى العرب فنتبينها بوضوح فى مذكرات بحار يوناني مجهول كتبها حوالي سنة 80 م باسم (The Periplus of the Erythraean Sea)
ــ نتبين منها أن الملاحين الروم كانوا اذ ذاك يبحرون راسا من قنا او من (Ocelis) الى (Cranganore = Muziris) بالجزء الاسفل من الساحل الغربي للهند وذلك فى الحقيقة يمثل تقدما كبيرا على ما جرت عليه العرب

---

37) The Travels of Marco Polo, Broadway Travellers, London, 1931, pp. 292-293
38) على نهر Tamraparni باقليم Tinnevelly انظر The Periplus of the Erythraean Sea (Schoff), 1912, p. 237
39) العقد الثمين ق 4/1
40) كتاب التشبيهات لابن ابي عون ــ تذكاركب ــ ص 97 .
41) Wilson, p. 45
42) Hourani, p. 14

من السير بمحاذاة الساحل الى «منطقة البوازيج»(43) اي كجرات (Gujerat) وربما انحدروا من هناك الى ساحل المليبار ايضا — الا ان الروم ، على الرغم من تفوقهم هذا ، كانوا لا يزالون بعيدين من القضاء على نفوذ العرب القديم فى الأسواق الهندية ، يذكر ان الروم لم يكونوا يستطيعون الحصول على القرفة (اللحاء) الا فى راس (Guadrafui) لانها كانت تحجب عنهم فى الأسواق الاصلية بينما كان ورق تلك الشجرة، شجرة القرفة نفسها ، معروضا عليهم فى المليبار حتى اشتهر بينهم باسم (Malabathrum) (44) وهذا اطرف مثال للاواصر الوطيدة بين المصدرين من التجار الهندوس والوسطاء العرب ضد عملائهم الروم .

لكن لا يظن ان الاتفاق بين الشريكين القديمين كان كفيلا بمقاومة تغلغل الدخيل الجديد الذي اقتحم الميدان مسلحا بالتفوق فى طرق الملاحة فان المصدر نفسه اعني (Periplus) يحدثنا ايضا عن الموالاة بين الروم وبين حمير ملوك ظفار الذين كانوا قد حلوا محل سبأ منذ حوالي 115 ق.م ، وذلك شاهد على ان العرب وان لم يكونوا قد تركوا الميدان الا انهم كانوا قد بدأوا يهادنون خصومهم وهل ذلك الا كنتيجة للضعف والوهن ؟

ومما زاد الطين بلة ظهور منافس جديد للعرب فى تجارة الهند . لا يخفى ان الهندوس كانت لهم علاقات تجارية قديمة جدا بساحل الصومال والحبشة ، لا ادل على ذلك من ان المصادر الهندوسية تحتوي على اقدم الاشارات الى « رجال القمر » و « جبال القمر (45) ، ثم ان العرب ، وان لم يرحبوا بالتجار الهندوس فى الموانىء اليمنية ، كانوا قد امسكوا عن مزاحمتهم فى منطقة شرق افريقيا (46) حتى اصبحت ملتقى للتجار الهنود والعرب واليونان والروم ايضا وقد ظلت على حالها هذه الى ان بدأ الحبشيون يتطلعون فى الفترة التي نحن بصددها الى نصيب اكبر لانفسهم من تجارة الهند وسرعان ما راحوا ينشدون تحالفا مع الروم ضد العرب لهذا الغرض (47) وهكذا اصبحوا عاملا جديدا كان له شان يذكر فيما بعد .

على كل حال بلغ استهلاك البضائع الشرقية ، ولاسيما انواع الطيب ، ذروته فى عهد نيرو (Nero) — 54 — 68 م — فقد ذكر بيلني (Pilny) ان المملكة الرومانية كانت تتكبد ما يقدر بمليون ومائة الف جنيه سنويا ثمنا لمشترياتها من جزيرة العرب والهند والصين وكان نصف هذا المبلغ تقريبا من نصيب الهند وحدها (48) . وقد اضطر الملوك الذين جاءوا من بعد الى فرض بعض التقشف صونا للمركز المالي الا ان حركة الاستيراد ما زالت قوية حتى كان عهد طراجن (Trajan) 98 — 117 م — الذي سعى لتضييق الخناق على العرب وذلك باعادة فتح القناة القديمة بين النيل والبحر الاحمر . (وكانت قد انسدت منذ عهد البطليموس الثاني) وتوصيلها الى بابل مصر ثم بضم اقليم النبطيين ، الذين كانوا قد ساعدوا (Aulius Galus) ضد اليمنيين ، الى مملكته وانشاء طريق رئيسي من العقبة الى دمشق واخيرا بانتزاعه جميع الأراضى الممتدة الى (Charax) و (Apologus) باعالي الخليج الفارسي من أيدي البارتيين . لاشك ان فكرة السيطرة على هذين المناءين كانت فكرة سليمة جريئة لانهما كانا على اتصال بحري شرقا بالهند وقد أتفق لطراجن نفسه حينما كان واقفا على رصيف Charax ان راى سفينة تتاهب للاقلاع الى الهند فاسف على انه لم يكن فى وسعه التقدم الى تلك البلاد لكبره وكانت تمتد ايضا من المناءين خطوط تجارية غربا الى موانىء الشام وعلى ذلك فقد اراد طراجن ان يتم له الجمع بين منطقتي الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سيطرته وتلك ميزة لم تتيسر من قبل لغير دارا الاكبر والاسكندر وكان يرجى أن تكون لمثل هذه الخطوة آثار بعيدة لولا ان البارتيين سرعان ما استردوا ما كانوا قد فقدوه فاقتصرت النتيجة على أن برز اسم مدينة (Palmyra) تدمر كخلف للرقيم التي خربها طراجن سنة 105 م وقد نال هذا المركز التجاري الجديد قسطا وافرا من الازدهار لأن الفريقين رأيا من مصلحتهما عدم التعرض له حتى بقي اهله يتجرون

---

43) هكذا يسميها ابو الفداء : التقويم (باريس) ص 358 .
44) Periplus ص 4
45) المصدر نفسه ص 87 نقلا عن Speke : Discovery of the Source of the Nile
46) المصدر نفسه ص 3
47) Hitti ص 59
48) Rawlinson ص 103

في كلتا المملكتين المتخاصمتين وينقلون البضائع بينهما وذلك الى سنة 273 م — الوقت الذي راى فيه الروم ان الفرصة قد سنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت قد استولت على الرقيم من قبل .

يتجلى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150 — 160 م) مدى التقدم الذي كان قد احرزه التجار الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعا على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا خليج البنغالة بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges) و « بلاد الذهب » (جنوبي ملايو) كما ان واحدا منهم على الاقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكنج (Tong King) ، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166 م الى عاصمة الصين ليشكو من احتكار الايرانيين لتجارة الحرير ويعرض انشاء علاقات مباشرة عن طريق الهند (49) ومن جهة اخرى تفيدنا المصادر الهندية التاملية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب الهند وانخراطهم في خدمة الامراء الهنود (50) كما ان ظهور التجار الهنود في اسواق الاسكندرية — الامر الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن(51) يعد دليلا على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين الروم والهند .

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرنين الثاني والثالث بينما اصبحت العرب غير ذات شأن الى ان حدثت تطورات سياسية جديدة وساءت احوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي كان يتعامل بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة ان ركدت التجارة وتضاءلت الى ادنى حد بدليل انه لم يعثر في الهند على العملة الرومانية الراجعة الى ما بعد 211 م الا القليل النادر (52) .

*/

لقد راينا آنفا كيف ان العرب غلبت على تجارة الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلا ليجنوا من ثمرات نصرهم فسنرى كيف ان الفرس حلوا محل العرب والروم جميعا اثناء القرون التالية ، نعم وقد اشتد ايضا في الوقت نفسه مركز الاحباش حتى اصبحوا المنازع الوحيد للفرس في تجارة الهند :

انتقل زمام الحكم من البارتيين الى الساسانيين في سنة 225 م ومن اهم ما امتاز به الساسانيون اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس — الناحية التي لم يلتفت اليها اسلافهم قط ، يتجلى هذا الاهتمام فيما قام به اول ملوك الاسرة الجديدة ، اردشير الأول (225 — 241 م) من انشاء الموانى وما اليها . وفي مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر الخليج الفارسي ثم عن انتقام سابور الثاني من العرب بعد ذلك بزمن قليل مما يدل على تقدم الملاحة واجتياز العنصرين دورا من المزج والصهر في بوتقة واحدة. وفي هذه الاثناء زالت روما وخلفتها قسطنطينية سنة 330 م كما ان حمير استكملت سيادتها على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب حتى اصبح التبع « ملك سبأ وحضر موت ويمنات ونهامة » لكن حمير كانت الآن مهددة تماما من قبل الحبشيين الذين كان يجري في عروقهم دم المهاجرين من اليمن نفسها وفعلا بدأ ملوك كسوم (Axum) يتحرشون بسكان الساحل الشرقي للبحر الاحمر منذ اواخر القرن الثالث حتى نجحوا في النصف الاول من القرن الرابع في اخضاع حمير لسيادتهم ، ومع ان سيادتهم لم تدم الا برهة قصيرة استأنفت حمير بعدها استقلالها الا ان الحبشيين بقوا عاملا يعتد به في كل ما يتعلق بالتجارة والسياسة في البحر الاحمر .

لقد مررنا سريعا بالقرن الثالث والرابع والخامس لقلة المصادر عنها غير ان الوقائع التي سردناها تعطينا فكرة عن التيارات الآخذة في النمو والاشتداد وما ان نصل الى القرن السادس حتى نرى نتائجها واضحة مستكملة وهي تتلخص في استيلاء الحبشيين مرة اخرى على حمير سنة 525 م ، ومما يسترعي الانتباه ان ذانواس لم يكن يملك اسطولا ولم يظهر اية مقاومة الا بعد وصول المهاجمين الى البر ، ثم جاءت النهاية الكبرى للخراب الذي كان يتسرب

---

49) انظر Hirth: China & the Roman Orien, 1885 ص 173 — 178 .
50) Rawlinson ص 121
51) المصدر نفسه ص 140
52) المصدر نفسه ص 151

الى اليمن منذ قرون بشكل انشقاق سد مأرب ما بين 542 — 570 (53) أما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جدا ، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانىء الهندية وكانوا كما يشهد به (Procopious) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من « الصين » (Sinae) الساحلية فى سيلان بينما كانوا هم انفسهم مسيطرين على الخطوط البرية الموصلة عبر وسط آسيا الى (Seres) مصدر « السرق » 54) اي الصين الشمالية . فخلاصة القول انه لم يكن احد ينفذ من الحصار المضروب من قبل الفرس على الموانىء الهندية الا الحبشيون الذين كثيرا ما ترددوا ببضائعهم ، ولا سيما العاج ، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانىء الفرس انفسهم وكانت (Adulis) (حاليا Massawa) ميناء الحبشة الرئيسي (وقاعدة الهجوم على اليمن) ، فى هذا الوقت مركزا تجاريا هاما لأن الروم كانوا قد اضطروا الى قصر نشاطهم على الاتصال بها والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المندب الا قليلا ، وهل أدل على تحرج موقف الروم وعجزهم من انهم تو ما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531 م بسفارة من قبل الامبراطور (Justinian) الى اكسوم يطلبون من الحبشيين أن يحاولوا شراء الحرير راسا من الهنود وبيعه لهم (الروم) لكي تتوفر الأموال التي كان الروم مضطرين الى دفعها لأعدائهم الفرس، وفعلا حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح الا انهم لم ينجحوا فى ذلك لما كان يتمتع به الفرس من النفوذ وحسن ادارة الأمور فى أسواق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه الى انشاء مراكز لهم فى سقوطرة وفى (Adulis) نفسها واخيرا نراهم يطردون الحبشيين من اليمن وينتزعونها لانفسهم حوالي 570 م .

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق افريقيا من جهة اخرى ، وكان من الطبيعي ان يصبح الخليج الفارسي الطريق الرئيسي لتجارة الهند فى عهدهم ، كما كان البحر الأحمر ابان نبوغ الروم من قبل . ونجد هذه الأحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد : افهل أدل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من أن الأبلة كانت تعرف بـ « فرج الهند » (55) كذلك يرجح أن « عدولية » فى قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامن (56)
يجور بها الملاح طورا ويهتدي

هي السفينة المنسوبة الى (Adulis) مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي .

بقي أن نتساءل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة فى هذا العهد ؟ يبدو انه لم يكن لهم صفة مستقلة ، انما كان اهالي عمان وما حواليها

---

53) المهم ان انشقاق سد مأرب كان نتيجة لا سببا لخراب اليمن وتشتت سبأ . انظر Hitti ص 65

54) ظل العالم الغربي يجهل حقبة طويلة ان (Sinae) التي كان الوصول اليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول اليها عن طريق البر انما كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد ، كما أن سكانهما كانوا من شعب واحد ، وتمثل كلمة « السرق » بالعربية (* بالانجليزية « Silk ») الحرير الوارد عن طريق البر أي ايران (بالفارسية « سره » والاصل بالمنغولية (sirkek) والصينية « ssi ») انظر (Periplus) ص 266 .

55) تاريخ الطبري (ليدن 12 / 2021 ، انظر ايضا 2023 حيث جاء : « كان فرج الهند اعظم فروج فارس شأنا واشدها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب فى البر والهند فى البحر »

56) ورد ذكر ابن يامن فى بيت لامرىء القيس ايضا:

أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت) . يرجح الدكتور سليمان الندوي انه كان تاجرا عربيا يهوديا هناك (عربون كي جهاز رائي ص 26) .

57) انظر (Hourani) ص 42 . أما اللغويون فنجد اقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخبط : عن الأصمعي عدولي قرية بالبحرين ، وقيل موضع يسمى عدولاة ، وعن ابن الكلبي : عدولى ليسو من ربيعة ولا مضر ولا ممن يعرف من اليمن انما هم أمة على حدة (كذا فى اللسان « عدل ») .

قد اختلطوا اختلاطا كبيرا بجيرانهم الفرس ، وكان من الطبيعي ان يشاركوهم اعمالهم مما اكسبهم دراية وخبرة . او لا نرى الى ازد عمان وهم يحتقرون لكونهم « مزونيين » وملاحين كما ان كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو الى اصل فارسي (58) . اما الصور الرائعة لمناظر البحر واهواله وسير السفن فيه التي يزخر بها ديوان العرب ، فلا يصح ان تتخذ دليلا على مزاولة العرب للملاحة او اهتمامهم بها ولاسيما اذا كان هناك ما يؤكد استهجانهم لها ، انما كانت تلك الصور كليشهات نقلت الى داخل الجزيرة من المناطق الساحلية (59) .

*/

على ضوء ما سردناه آنفا من الاوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع ان نفهم جيدا بعض الحوادث التي وقعت في اوائل العهد الاسلامي، فمثلا حملة اهل عمان البحرية على فارس وحتى سواحل السند وكجرات بدون سابق اذن من الخليفة الثاني عمر انما تدل على المعرفة القديمة والتحمس الجديد لاثبات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متفوقين عليهم من قبل ، كذلك نرى كيف ان عمر الذي كان حذرا خائفا من « حمل الدود على العود » اضطر الى السماح بمهاجمة (Adulis) لاشعار الحبشيين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسعت الفتوح الاسلامية حتى شملت مصر من جهة والسند من جهة اخرى فكانت النتيجة ان اصبح طريقا الخليج الفارسي والبحر الاحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تاقت الحكومات المختلفة الى تحقيقها فلم توفق الى ازالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد راينا من قبل وتبع هذا التطور الجديد ان ارتفع التنافس والتسابق بين المنطقتين ورجع نشاط كل منهما الى ما كانت تقتضيه طبيعة العمران والاستهلاك المحلي ، وبما ان خط الخليج الفارسي كان اكثر استقامة واقرب مسافة واوثق اتصالا وان التجار لم يلجاوا الى البحر الاحمر الا للضرورة ، لذلك استمر هو الاول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ عهد الساسانيين ومما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة ملموسة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يبسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم اوضح دليل على اهمية العلاقات التجارية التي نحن بصددها، قال دهقان بغداد للمنصور : « ... تحمل اليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ... » (60) .

يصدق هذا القول ما أورده الرحالون والجغرافيون امثال سليمان التاجر (237 هـ) وابن خرداذبه (232 هـ) والمسعودي (332 هـ) والمقدسي (375 هـ) بشأن ازدهار التجارة والعمران في الابلة وسيراف والبصرة ، لقد كانت المراكب تقلع من هذه الموانيء الى مسقط ومن هناك راسا الى كولم ملى (Quilon)
بجنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق فاما الى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي واما الى سرنديب (جزيرة سيلان) وكله Kedah بملايو) على الطريق الى الصين ، هذا فضلا عن حركة التجارة المتصلة بالموانيء القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن اشهرها الديبل على مصب نهر السند وكنبايت وبروص (Broach الحالية) بكجرات وتانه وصيمور Chimur) وسوباره
(Churparaka = Sopara)
باقليم بومباي ولنقدر مدى توثق العلاقات بين المصدرين الهنود وزبائنهم بقول سليمان عن ملوك الكمكم (Konkon) انهم « يعمرون ربما ملك احدهم خمسين سنة وتزعم اهل مملكة بلهرا
(Rashtrakutas = « Vallabhrai »)
انما يطول مدة ملكهم واعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب وليس في الملوك اشد حبا للعرب منه وكذلك اهل مملكته (61) لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في اسواق العرب ؟

ومما يلاحظ في هذا الصدد ان انتشار الاسلام الى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيرا على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وقد كانوا اختلطوا

58) المهلب بن ابي صفرة مثلا .
59) انظر دائرة المعارف الاسلامية « السفينة » .
60) البلدان لياقوت (ط اوربا) 681/1 .
61) سلسلة التواريخ ص 27 .

وامتزجوا الى حد كبير فى العصر السابق ، ولذلك نراهم فى العصر الاسلامي يشتركون فى أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم فى استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من العسير التمييز بين العنصرين ، الا أن نظرة واحدة على اسماء النواخذة الوارد ذكرهم فى كتاب عجائب الهند لبزرك بن شهريار (62) تكفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبته ايضا .

أما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان ونقا لحاجة مصر لا غير وللسبب نفسه يرجح انه زاد كلما ارتفع شأن مصر على اثر انحلال الدولة العباسية لاشك أن عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلزم الا انه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة الى الجار ميناء المدينة .

واخيرا يجب التنبيه على أن ظهور الاسلام وان ادى الى قيام دولة واحدة تشرف على طريقي الخليج الفارسي والبحر الأحمر الا انه فى الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة ، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار احدى الدولتين بالاطمئنان الى انشاء صلات مستديمة مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة ان انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الاسلام وبلاد المسيحية فى ايدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خرداذبه بقوله :

« يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربي فيخرجون بالفرما (Pelusium) ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة الى الابلة ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (63) .

ثم يحدثنا ابن خرداذبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه :

« هم جنس من الصقالبة فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من اقصى صقلية الى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وان صاروا فى تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون الى بحر جرجان ... وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية ، فاما مسلكهم فى البر فان الخارج منهم يخرج من الاندلس او من فرنجة فيعبر الى السوس الأقصى فيصير الى طنجة ثم الى افريقية ثم الى مصر ثم الى الرملة ثم الى دمشق ثم الى الكوفة ثم الى بغداد ثم الى البصرة ثم الى الأهواز ثم الى فارس ثم الى كرمان ثم الى السند ثم الى الهند ثم الى الصين (64) .

أما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار اليها بالاجمال أيوب بن القرية (من اصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما سأله الحجاج عن الهند فأجاب بقوله : « بحرها در وجبلها ياقوت وشجرها عطر » (65) — وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرافي حيث قال :

« بحر الهند والصين الذي فى بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب ، وفى أفواه دوابه العاج ، وفى منابته الابنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الافواه الطيبة الذكية وطيوره الغفاغى (يعني الببغاوات والطواويس) وخرشات

(62) Leide, 1883-86
(63) المسالك والممالك 153 — 154 .
(64) المسالك والممالك 153 — 155 .
(65) الاخبار الطوال للدينوري ص 326 .

ارضه الزباد وظباء المسك وما يحصيه احد لكثرة خيره » (66) .

هذا وقد جمع احد من الشعراء الموالي اسمه ابو الضلع (كذا في معجم المرزباني 513 وفي الفهرست 174 « ابو الصلع ») السندي كل ما امتازت الهند به من وفرة الانتاج واشتهرت به من جودة الصناعات في ابيات رائعة في معرض المدح والافتخار ، قال :

لقد انكر اصحابي ، وما ذلك بالأمثل
اذا ما مدح الهند وسهم الهند في المقتل
لعمري انها ارض اذا القطر بها ينزل
يصير الدر والياقوت والدر لمن يعطل

فمنها المسك والكافور والعنبر والمندل
واصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وانواع الاغاويه وجوز الطيب والسنبل
ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وان التوتيا فيها كمثل الجبل الاطول
ومنها الببر والنمر ومنها الفيل والدعفل
ومنها الكرك والببغاء والطاووس والجوزل
ومنها شجر الرانج والياسم والفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
ورماح اذا ما هزت اهتز بها الجحفل
فهل ينكر هذا الفضل الا الرجل الأخطل ؟

(الآثار للقزويني ص 85 وانظر الحيوان 50/7) .

الألفاظ الهندية المعرّبة

ان العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة في القدم تتمثل في الاسماء الهندية المعربة اكثر منها في اشارات او روايات في بطون المجاميع الادبية والتاريخية او المؤلفات الجغرافية ، وقد استحضرت في ذهني عددا من المفردات المتعلقة بالتجارة وما اليها اتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها ما يمكننا من ردها الى اصلها الهندي العتيق ، واقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت اليها بشأن اصل طائفة من الالفاظ المعربة ، والتي ربما اعتبر بعضها عربيا محضا .

ويهمني ان انوه في هذا المقام بظاهرة ربما يكفل ابرازها القضاء سلفا على اي استغراب يلحق القاريء فيما بعد ، وهي ان العرب الاول الذين نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لجج البحر الهندي انما دابوا على ذلك ليجلبوا من الهند وما وراء الهند لا البضائع فحسب بل اسماءها المحلية ايضا كما سمعوها من افواه الذين اختلطوا بهم وعاملوهم ، وسيبدو ذلك طبيعيا اذا نحن قدرنا ان معظم تلك البضائع هي التي لم يعرفها العرب في اوطانهم وغير اوطانهم من قبل ، بل انما عرفوها لاول مرة في الهند ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما بعد . وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الاول لبضاعة من البضائع اذا اقترن بثبوت استيراد العرب لتلك البضاعة منها (الهند) ينهض دليلا قويا ، بل قاطعا ، في كثير من الاحوال ، على ان الاسم هندي الاصل كالبضاعة ذاتها . فمن الامثلة المتفق عليها من هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصندل والساج والمسك والليمون والنارجيل واسماء عدد من العقاقير كالاطريفل وجميع اصناف التوابل تقريبا كالفلفل ، وسنرى اننا لو سرنا على هذه القاعدة لكان في وسعنا ان نلقي بعض الضوء على اصول عدد من الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من الغموض .

ولا يخفى ان لبحثنا هذا جانبا آخر على درجة كبيرة من الاهمية وهو ان معظم تلك الكلمات التي يقال عنها انها عربية دخيلة في اللغات الأوربية ، ولاسيما الاسبانية والفرنسية والانجليزية ، هي في الاصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق اخرى شرقي الهند ، وذلك لان تلك الكلمات انما شقت طريقها الى اوربا عن طريق التجارة على ايدي العرب ، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في اي من حقلي الزراعة والصناعة لا لشيء الا لان الطبيعة حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية . اذن فكأن

66) سلسلة التواريخ 137 — 138 .

الاقدار حتمت عليهم ان يقوموا بدور الوسيط فى جلب البضائع الهندية والصينية وتوصيلها الى اوربا الى ان قدر لأوربا الاتصال مباشرة بالشرق الاقصى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو لعمري دور لعبه العرب لا بجراة وكفاءة فحسب بل بأمانة تركت اطيب الاثر واعمقه فى نفوس السكان غير المسلمين لمختلف مناطق الهند الساحلية. فهذه الظروف تقرر علينا . كلما وجدنا فى اللغات الاوربية كلمة تتعلق بالملاحة (67) او التجارة على ايدي العرب فى المحيط الهندي ، ان نواصل البحث عن اصلها الهندي بعد ان نهتدي الى شكلها المعرب فى العربية . ولعل فى مقارنة الطرفين الأوربي والهندي ما يكشف لنا بعض ما غمض على المتأخرين من العرب انفسهم فى بعض الاحيان .

فمثلا كلمة (Almanac) لم يشك احد فى انها انتقلت الى اوربا عن العرب لكن حار الباحثون فى الاهتداء الى اصلها فقالوا انه « المناخ » (محيط المحيط ــ ن و خ) او ان العرب الاندلسيين استعاروا كلمة ⵃA ⵃIXIΛ3WYⵃ (68) من المصريين وبدأوا ينطقونها«المناخ» . .(2) الحقيقة ان اصلها « رهمانج » عند ابن ماجد (69) وهو تحريف البحارين لكلمة « الراهنامج » التى جاء عنها فى التاج 51/2 : « فارسية استعملها العرب واصلها « راه نامه » ومعناه ، كتاب الطريق) ... (وهو الكتاب الذى يسلك به الربابنة) ... فى سفر البحر ويهتدون به فى معرفة المراسي وغيرها) كالشعب ونحو ذلك » .

صناعة السيوف وما اليها

(1) الآنك : لقد اصاب ادى شير القول بانها قريبة من « Ranga » بالسنسكريتية (الفارسية : آهك) ؛ والرصاص الابيض معروف الى الآن فى الهند بذلك الاسم ، وهو جزء من كلمة « الاسرنج » ــ لعل اصلها ان يكون « h'sang » (70) الا «سرخ + آنك » كما اورده ادى شير)

اما معدن الرصاص فيقول عنه مسعر بن مهلهل (القرن الرابع الهجري) : « انها (كله) اول بلاد الهند مما يلي الصين ، وانها منتهى مسير المراكب ، ولا يتهيأ لها ان تجاوزها والا غرقت ،

---

(67) لقد صرح المسعودي ، فيما يتعلق بالملاحة ، ان العرب حرصوا على الأخذ بالالفاظ المحلية فى مختلف المناطق التى ترددوا عليها ، انظر الى قوله : « انما نعبر بلغة اهل كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم فيما يتعارفونه بينهم » المروج 332/1 (ايضا 343 : « انما نخبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه فى خطابهم » .
ويلاحظ ايضا فى هذا الصدد ان العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكرتية الفصيحة ، ولاهم اعتنوا بأشكالها الصحيحة فى الكتابة ، بل انما اخذوها من افواه التجار وسكان المناطق الساحلية التى كانوا يترددون عليها ، ولا يخفى ان تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة .

(68) Hob.-Job. - « Almanack »

(69) Ferrand : Instructions Natiques, Tome I ص 60 « رهمانج » ــ 88 « رهمانجات » ــ 76 « رهمانجا » .
واللبس مثل الذى نشاهده فى اول هذه الكلمة كثير شائع فيما يتعلق بالكلمات الاعجمية التى فى اولها حروف تقارب الالف واللام . فكلمة « انجر » (Anchor) مثلا اصلها بالفارسية « لنكر » (القاموس ــ نجر) ، اضاف العرب عليها الالف واللام (ال لنكر) ، ثم التبس عليهم الامر فظنوا ان اللام ليست من الحروف الاصلية (النكر) وقالوا « انجر » ــ وكذلك الرصاص من « ارزيز » (انظر ادى شير) ؛ والماس من « Adamas » (Periplus) ص 224 وانظر بزرك ص 128 « الادماس ») بتمامه كلمة غير عربية والالف واللام من بنية الكلمة ، كذا فى شفاء الغليل واللسان (ماس) عن ابن الاثير ــ وسياتي الآنك من « Ranga »
يلاحظ ايضا انهم كثيرا ما يحذفون الكاف والميم من الاول فى التعريب ، انظر مثلا الرند = كرندة و « انباتي » نسبة الى كنبات و « انبجاني » نسبة الى « منبج » واترج / ترنج تعريب « ما تلنفا » ــ وكذلك الواو يسقط من الاول مثل « النج » من « valgu » وارز من « virizi »

(70) Watt ص 707 .

وبها قلعة يضرب بها السيوف القلعية . وهي الهندية العتيقة لا تكون فى سائر الدنيا الا فى هذه القلعة . . وليس فى جميع الدنيا معدن الرصاص القلعي الا فى هذه القلعة » (71) .

فالنسبة فى «السيوف القلعية» و «الرصاص القلعي » (الفرنسية : Alkalap) الى هذه القلعة بكله (72) وقد شهد الادريسي ايضا بانها المعدن الوحيد للرصاص الابيض بالنسبة الى العالم أجمع فى زمانه ، فانه يقول :

« وبهذه الجزيرة (كله) معدن الرصاص القلعي . وهو بها كثير صافي الجوهر ، والتجار يغشونه بعد خروجه عنها ، ومنها يتجر (يجهز) به الى جميع الارض » (73) .

ثم يظهر ان مثل هذا المعدن نجم فى الاندلس ايضا فيما بعد ، فبدا التجار يتجولون عن الهند اليها ، حتى اذا مضى زمن خلط الناس بين المعدنين كما فى قول ياقوت :

« القلعة فيما زعم مسعر بن المهلهل بلد فى اول بلاد الهند من جهة الصين ، واليه ينسب الرصاص القلعي والسيوف القلعية ، واقليم القلعة من كورة قلبرة بالاندلس ، وانا اظن الرصاص القلعي منسوبا اليها او الى قلعة بالاندلس فانه من هناك يجلب » (74)

ان شهادة مسعر بن المهلهل والادريسي ليست موضع الشك ، وكل ما افادنا ياقوت هو ان الرصاص الابيض كان فى ايامه يجلب من الاندلس بعد ان كان يجلب من القلعة بكله من ذي قبل . ولعل فى الاخذ باسم « القصدير » ــ الذى يرادف الآنك الا انه معرب عن اليونانية ــ ايضا دلالة على التحول المشار اليه من الشرق الى الغرب .

ثم انه يرجح عندي ان المراد ليس « القلعة بكله » بل كلمة « قلعة » هي تعريب « كله » لا غير ، والمعدن المسمى « كله » باللغة المحلية انما كان واقعا على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو ، وقد ذهب الباحثون الى ان « كله » توازي « Kedah » أو « Kra » الحالية (75) .

ويلاحظ ان اهم ما اشتهرت به سيوف الهند جودة الصقل ، وهو عمل لا يتاتى الا بالآنك الذى استاثرت القلعة بانتاجه ، اما الحديد اللازم لصناعتها فقد اورد الادريسي بشانه ما يلي :

« ان بلاد سفالة (سفالة الزنج أي شرق افريقيا) يوجد فى جبالها معادن الحديد الجيد الكثيرة ، واهل الرانج (الزانج ؟) وغيرهم من ساكني الجزائر المطيفة لهم يدخلون اليهم ويخرجونه من عندهم الى سائر بلاد السند وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد ، لان بلاد السند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد ، ومع ذلك وان كان الحديد موجودا فى بلاد الهند ومعادنه بها ففى بلاد سفالة هو اكثر واطيب وارطب ، لكن الهنديين يحسنون صنعته وتركيب اخلاط الادوية التى يسبكون بها الحديد اللين فيعود هنديا منسوبا الى الهند ، وبها ديار الضرب للسيوف وصناعهم يجيدونها فضلا عن غيرهم من الامم ، وكذلك الحديد السبتي (كذا وفى نسخة اخرى: السندي) والسرنديبي والبينماني كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة واحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء ، ولا يوجد شيء من الحديد امضى من الحديد الهندي، وهذا شيء مشهور لا يقدر احد على انكار فضيلته » (76)

هذا وقد كانت البيلمان (البينمان) مركزا آخر هاما لصناعة السيوف تنسب اليه السيوف البيلمانية ، وكانت تقع على ملتقى حدود السند والهند كما يتضح مما ورد فى شأنها فى فتوح البلدان للبلاذري ص 440 و 442 ، اما القول بانه « يشبه ان يكون (البينمان) من ارض اليمن » (انظر البلدان لياقوت والقاموس « ب ل م ») فلا يقوم على سند .

---

(71) القزويني 69 وياقوت « القلعة » و « الصين ».
(72) المعرب للجواليقي ، تحقيق احمد محمد شاكر ــ ص 276 .
(73) دار الكتب المصرية ، جغرافيا رقم 150 ص 130 .
(74) المشترك والمفترق 357 .
(75) انظر دائرة المعارف الاسلامية « Kalah » و « Kal'i » .
(76) ص 108 ــ 109 . قارن ابن الوردي ، القاهرة 1328 هـ، ص 51 .

الرمـــــــاح

تلك هي قصة السيوف التي لم تزل تحمل نسبتها الى الهند كشعار لجودة الصنعة وحسن الصقل ، ولننتقل الآن الى الحديث عن الرماح التي طويت نسبتها الى الهند على مر الزمان . الا انه يمكننا اذا امعنا النظر ان نستشفها من وراء كلمات لا تزال تحمل سمات الغرابة والغربة مع انها كثيرا ما عدت عربية لا لشيء الا لعدم الاهتداء الى اصلها .

يتكون الرمح من جزئين : الاول هو النصل او السنان ، والثاني هو القناة . وغني عن البيان ان صناعة السنان متجانسة مع صناعة السيوف بل هما صناعة واحدة ، وعلى هذا يصبح من الطبيعي ان يغلب الظن بأن العرب ربما استعملوا الأسنة المصنوعة في الهند الا انه لا يعدمنا من الدليل الايجابي ما يرتفع بهذا الظن الى درجة اليقين ، فاننا نراهم يستعينون ببعض الكلمات الهندية للتعبيرات الدقيقة المتعلقة بهذه الصناعة . انظر الى كلمة « الخرص » تبدو كأنها دخيلة على مادة « خ ر ص » العربية . فالخرص تعني الجزء الاعلى الذي فيه الحد من السنان ، وهي بهذا المعنى توازي كلمة « Kirch » بمليالم (Malayalam) احدى اللغات الدكنية ـ والاردوية ايضا ، ولعل اصلها في لغة جاوة وملايو « Kris, Kiris, Kres » (77) ـ وربما اطلقت الكلمة على القضيب والرمح نفسه كما قال حميد وابن ثور : « عض الثقاف الخرص الخطيا » (78) ولا يخفى ان هذه النسبة الى الخط هي اقوى ما يؤيد الاصل الهندي للرماح المنسوبة اليها لان الخط لم تكن الا مرفأ للسفن الواردة من الهند كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

اما الجزء الثاني ، وهو بلا شك اهم الجزئين فقد كان العرب شديدي الاهتمام بالقنا والانتقاء لها حتى ان الشعر العربي يزخر بأوصافها ونعوتها الا ان كثرة استعمال العرب للاسماء المختلفة للقناة وما يتبعها وجريها على السنتهم مجرى الكلمات العربية في الاشتقاق وما الى ذلك جعلا اصل تلك الاسماء نسيا منسيا . هذا مع انه قد ثبت بصورة قاطعة لا يتطرق اليها اي شك أن منبت القنا الذي كان العرب يعتمدون عليها لسد حاجتهم ـ وما اكثر تلك الحاجة ـ لم يكن غير الهند كما سنبين ذلك آنفا بعد ان نسوق بعض المقدمات ونتعرض لبعض الملابسات التي لا بد منها نظرا الى غموض الموضوع.

أولا : القنا = قصب السكر . لا يخفى ان اطلاق القنا على هذا المعنى انما هو على سبيل التبعية والمجاز . وان كان ذلك مطابقا للمألوف في اللغة السنسكرتية وبعض اللغات الهندية الاخرى . وعلى كل حال فالمرجح عند العلماء هو ان موطن قصب السكر الاصلي لا يتجاوز ما بين بنغالة والهند الصينية (79) والدليل على ذلك ان جميع منتجات قصب السكر اشتهرت في العالم بأسمائها الهندية وهاكها فيما يلي :

1 ـ Candy = الفارسية والعربية « قند » = سنس « Khanda » ومليالم « Kandi » (79) .

2 ـ العربية « فانيذ » = الفارسية « بانيد » = سنس « Phanita » ـ قارن « Penidium » Med. Lat, وقد ذكر ابن حوقل والبشاري الفانيذ من اهم الصادرات من مدن السند: فنجبور ومولتان وطوران.

3 ـ Sugar = العربية « سكر » = الفارسية « شكر » = البراكرتية « Sakkara » / سنس « Sarkara » .

ومن الطريف في هذا الضدد ان الهنود ، وان كانوا اول من قام بانتاج السكر ، سرعان ما بداوا يستوردونه من الصين ومن مصر ، وذلك لان الصينيين والعرب ، الذين نقلوا زراعة قصب السكر من الهند الى الصين والى مصر (ثم الى صقلية والاندلس) ، لم يلبثوا ان سبقوا الهنود في ابتكار وسائل جديدة للتكرير ، ففاق الصينيون في صنع سكر ناصع البياض بشكل قطع صغيرة ، كما ان المصريين اختصوا بصنعه بشكل قطع كبيرة ، ولم تزل الهند تستورد ذينك الصنفين من السكر من

---

(77) Hob.-Job. - « Crease, Cris »

(78) اللسان 8 / 287 .

(79) Hob.-Job. - « Candy »

الصين ومن مصر الى مطلع القرن الماضي حتى انهما يعرفان الى الآن في اسواق الهند باسم « صيني » و « مصري » على الترتيب (80) .

ثانيا : القنا بمعنى الرمح . يلاحظ في هذا الصدد ان هناك شيئا يشبه السكر كثيرا ما يتكون داخل القنا (Bamboo Sugar) يسمى عند العرب والفرس « الطباشير » وكان استعماله كدواء شائعا جدا في العصور الوسطى ؛ ومن المتفق عليه أن كلمة انطباشير انما هي منقولة عن سنس « Trakkshira » اي انها هندية الاصل (81) .

ثم ان الخيزران يصفه العرب انفسهم بانه شجر هندي وهو عروق القناة (انظر الصحاح والتاج « خزر ») أفلا يكون القنا اذن شجرا هنديا ؟ والخيزران الهندي (82) هو الذي يتمثل به في

(80) Hobson-Jobson - « Sugar »

ومما يشهد ببراعة المصريين في هذا المضمار القطعة التالية منقولة عن ماركو بولو : (Ramusio II, 44)

« And before this city » (a place near Fu-chau) « came under the great Can these people knew not how to make fine sugar ; they only used to boil and skim the juice, which when cold, left a black paste. But after they came under the Great Can some men of Babylonia » (i.e., of Cairo) « who happaned to be at the court proceeded to this city and taught the people to refine the sugar with the ashes of certain trees » - 1298 A.D.

ومجلة « اللسان العربي » تلاحظ ما يلي :

كان السكر يصنع في شقي العروبة بافريقيا : المغرب ومصر وقد حدثنا المقريزي انه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصر القصب كما كان بعلوى عدة احجار (الخطط ج 1 ص 203) وكذلك في قابس وجلولا (البكرى في المسالك جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) .

وقد اكد ماس لاطري Latrie ان المغرب كان يصدر السكر في القرن الثالث عشر الميلادي الى الفلاند والبندقية (علائق وتجارة افريقيا الشمالية ص376) وقد نبه الحسن بن محمد الوزان المعروف بـ Léon l'Africain على وجود السكر بسوس قبل السعديين ولكن الشرفاء السعديين هم الذين جلبوا اساليب تصفية هذا السكر وتبييضه في معاصر ساهم الاسرى المسيحيون في تأسيسها بأكادير وخاصة ، سكساوة وشيشاوة (مستندات دوكاستر ج 1 ص 303) .

ويوجد نص رسالة موجهة من مولاي محمد بن عبد الغالب ـ المسلوخ ـ عن اذن والده الى ملك فرنسا مؤرخة من قصر الدار البيضاء (فاس الجديد) في رجب 968 (مارس 1561 م) حول استعداد المغرب للسماح للملك شارل التاسع باحتكار سكر المغرب بشرط دفع ثمنه بالسعر المغربي مع زيادة نسبة في المائة وكذلك اصدار النحاس المغربي لفرنسا طبقا لرغبة ملكها بشرط دفع ثمنه سلاحا وعتادا (السلسلة الاولى ـ السعديون ج 3 ص 746) .

ولما عجز الاوربيون المجلوبون لعصر قصب السكر في معمل أكدال بمراكش وتصفيته واخراجه من القوة الى الفعل عن اتمام عمليتهم جلب محمد بن عبد الرحمن الصناع المهرة من مصر القاهرة (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 556) .

واسس مولاي الحسن عام 1878 مصنعا للسكر بمراكش وكلفه ذاك نفقات باهظة. ولكن هذا المصنع احيل بعد سنوات الى مدبغة للجلود (كامبو ص 59).

وقد كان البلاطان الفرنسي والانجليزي يتنافسان في القرون الاخيرة على اقتناء السكر المغربي المكرر لصفائه وجودته .

(المعجم التاريخي للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ص 38) .

(81) Hob.-Job. - « Tabasheer »

(82) لقد عرف العرب ان بلاد الروم كانت تمتاز بمنابت الخيزران كما يقول النابغة الجعدي : « بلادهم بلاد الخيزران » (انظر اللسان ـ خزر) الا انه من المحقق انهم كانوا يجلبونه من الهند ويتمثلون بالهندي منه في شدة اللين . كذا في محيط المحيط ـ خزر . وقد أورد القزويني في الآثار ص 38 عن كله : « بها منابت الخيزران منها يحمل الى سائر البلاد » .

(×) وقد كان اهل Magan اي عمان يستوردون الاخشاب من نفس هذه المنطقة وذلك اربعة آلاف سنة قبل المسيح ـ انظر : Wilson : The Persian Gulf, p. 27

شدة اللين ومنه قولهم : الخيزرى والخوزرى والخيزلى = مشية فيها تفكك .

وربما اقترن اسم القنا بالقسط ما عدا الخيزران عند الربابنة والجغرافيين العرب كما سنرى ، ومن المسلم به ان القسط او الكسط هندي بحت (سنس « Kustha ») وانما نسبوه في بعض الاحيان الى ظفار باليمن لانه كان يجلب اليه من الهند ، القاموس « ظفر ») .

ولنبحث الآن عن المواضع التي كان العرب يترددون عليها لجلب القنا منها . نجد انها لا تتجاوز ساحل السند والساحل الغربي والجنوبي لمنطقة الدكن بالهند (*) : فهذا قول ابن خرداذبه 62 : « ومن السند يجيء القسط والقنا والخيزران » ويقول ايضا : « ومن مهران الى اوتكين وهي اول ارض الهند مسيرة اربعة ايام ، وفي هذه الارض ينبت القنا في جبالها والزرع في اوديتها واهلها عتاة مردة لصوص » ـ كذلك يقول ابن الفقيه 251 : « خص الله بلاد السند والهند ب ... القنى والخيزران ... » ـ وهذه شهادة مسعر بن مهلهل يقول : « وخرجت الى سواحل البحر الهندي متياسرا فسرت الى بلد يعرف بمدورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير وذلك ان القنا اذا جف وهبت عليه الريح احتك بعضه ببعض واشتدت في الحرارة الحركة فانقدحت منه نار فربما احرقت منه مسافة خمسين فرسخا او اكثر من ذلك ، فالطباشير الذي يحمل الى سائر الدنيا من ذلك القنا . فاما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مائة مثقال او اكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا اذا هزت وهو عزيز جدا ... » ثم يقول عن مدينة كولم ايضا : « والخيزران والقنا بها كثير جدا » (انظر ياقوت « الصين ») . كذلك يقول الادريسي : « ومدينة تانة (بالقرب من بومباي (جليلة ... وبجبالها وارضها ينبت القنا والطباشير يتخذ فيها من اصول القنا ومنها يحمل الى سائر البلاد من المشارق والمغارب » ـ ص 297.

وبعد ان تفقدنا منابت القناوجب علينا ان نقتفي آثار نواخذة العرب لنرى اين تفرغ سفنهم حمولتها وهاك ما يقوله ابن سيده (المخصص 34/6) عن « الرماح الخطية » اشهر الرماح عند العرب : (الخط مرفأ السفن بالبحرين (*) ينسب اليها الرماح وليست الخط بمنبت لها ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند كما قالوا مسك دارين (*) وليس هناك مسك ولكنها مرفأ السفن التي تحمل المسك من الهند) .

ترى كيف ان القناة المجلوبة من منابتها بالهند والتي ركب عليها خرص او سنان مصنوع في مصانع السيوف حول معادن الرصاص القلعي بالهند ، كيف ان هذه القناة هي التي تصبح « رمحا خطيا » بمجرد دخولها حدود جزيرة العرب ؟

السمهري :

والحديث عن « الخطي » يذكرنا على الفور بـ « السمهري » و « الرديني » . لو رجع احد الى اللغويين واصحاب المعاجم لوجدهم يقولون ان السمهري نسبة الى سمهر والرديني نسبة الى رديئة وهما زوجان كانا يقومان ببيع الرماح بالخط، ولكن المتتبع للشعر العربي والمتأمل في اقوال اللغويين واصحاب المعاجم انفسهم لا يلبث ان يتبين ان السمهري يغاير الرديني تماما من حيث الصفات المنسوبة الى كل منهما ، فالسمهري يمتاز بصفتين هما : ـ 1 ـ الاعتدال ، ـ 2 ـ الصلابة ، اما الرديني فيتميز بضد الصلابة وهو اللدونة لانه هو الذي يهتز دون السمهري . وعلى هذا فيا له من تحديد الاختصاص بحيث يمارس الزوج والزوجة بيع رماح من نوعين مختلفين ـ ولعل المفروض انهما كانا يتخذان محليهما جنبا الى جنب في سوق الخط ـ بدون ان يطغى الواحد منهما على الآخر ! ويا لها من مراعاة للمناسبات والصلاحيات بحيث يكون بيع الرماح الصلبة من حصة الزوج وبيع الرماح اللدنة من نصيب الزوجة !! ومما يزيد اقوالهم ارتباكا كما يزيدنا ارتيابا ان احدا منهم على الاقل ـ وهو الزبير بن بكار ـ ذهب الى ان سمهر كانت قرية بالحبشة (انظر التاج حيث جاء ان الصاغاني انكر هذا القول ، كما ان بعضهم قال ان سمهر اسم امراة كانت تقوم الرماح !!!

(*) ذكر Pliny اسم موضع Chateni يقع على سواحل الخليج هو الخط ولا شك ، (الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 309/2) .

(*) Daden/Dirin = البحرين او جزيرة بالقرب منها ـ (Heeren, II, 230)

ان المهم في هذا كله هو ان الزوجين ، على حد تعبير اللغويين ، كانا يبيعان الرماح بالخط والخـــط ، كما راينا آنفا ، لم تكن الا مرفأ للسفن الواردة من الهند ، اذن فمن المؤكد أن السمهريات والردينيـات كانت رماحا هندية ، هذا بغض النظر عن من قـام بأعمال بيعها او توزيعها في الخط . افيستغرب بعد هذا أن يكون التجار العرب قد اخذوا اسمى الصنفين من الرماح ــ الصلب واللدن ــ من افـواه التجـار الهنود ؟ ان مثل هذا القياس يوافق مقتضى طبيعـة المعاملات التجارية كما انه يصادف حرص العرب على تسمية الاشياء والبضائـع التجاريـة بأسمائهـا المحلية . فربما يكون سمهر اسما هنديا جاء به العرب مع مسماه (اي الرماح الممتازة بالاعتدال والصلابة) الى الخط وطبعا خفي امـره على النـاس لكونه غير عربي ، فلذلك لم يفقهوا غير انه انتشر بين العرب عن طريق ذلك المرفأ بالبحرين (83) .

ولعل القاريء الأريب يتبيـن في قول ياقـوت الآتي تأييدا لجميع ما قدمنا آنفا . يقـول ياقـوت : « سمهر قرات بخط ابي الفضل بن العباس بن على الصولي المعروف بابن برد الخيار ... قال حدثنـي سليمان المدائني قال حدثنـي الزبيـر بن بكار قال الرماح السمهرية نسبت الى قرية يقال لها سمهـر بالحبشة ... قلت انا وحدثني بعض من يوثق به ان هذه القرية في جزر من النيل (الآثار للقزوينـي ص 30 « جوف النيل ») يأتي من ارض الهند على راس الماء كثير من القنا فيجمعـه اهـل هـذه القريـة ويستوقدون زواله ويبيعون جيـده وهـو معـروف بأرض الحبشة مشهور ــ وقول من قال ان سمهـر اسم امراة كانت تقوم بعمل الرمـاح فانه كلـف من القول وتخمين (*) » .

الـرديـنـي :

لكن انتفاء شخصية سمهر يستلزم ايضا عدم بقاء ردينة كأرمالة تخير في خطابها من يخلف في بيع الرماح الصلبة ، الا ان تلك مسألة لا تستدعـي كبير عناء بعد أن حطمنا الاغـلال التي كانت تقيـد فكرنـا . كفانـا ان ننظـر الـى كلمـة « Rattan » بالانجليزية هي اسم لنوع معين من الخيزران غايـة في المتانة والجودة وتمتاز قناته اكثـر من اي شيء آخر بالمرونة واللدونة ، انظر « Rattan » - (Hob.-Job. ومما لا يشك فيه ان هذه الكلمة بالانجليزية منقولة عن « Rotan » بلغة ملايو والهند الشرقية . افهل يستبعد ان تكون (ردينة) الحلقة الوسطـى بيـن « Rotan » من جهة و « Rattan » مـن جهـة اخرى ليس الا ؟

القـنـــا :

لقد آن لنا ان ندون بعض الملاحظات عن اصل كلمة «القنا» . اننا راينا ان العرب ، مع كثرة وصفهم للرماح ، لم يذكروا اي منبت للقنا في ديارهـم . بل بالعكس اجمعت الادلة كلها على انهم كانوا يعتمدون على منابت القنا بالهند ، ولا يفوتنا في هذا المقام ان نذكر ما اورده الجاحظ (البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون 16/3) من ان الشعوبية طعنوا في العرب بقولهم : « انما كانت رماحكـم من مران واسنتكم من قرون البقر ... » ــ لعل مفزى هـذا المطعن لا يعدو ان العرب لم يجـدوا في ديارهـم ما يمكنهم من صنع الرماح بجزئيها القناة والسنان ــ واخيرا يجب علينا ان لا نغفل اعتبار الاحوال الطبيعية اللازمة لنمو القنا وهي تنحصر في سفـوح جـبال تهطل عليها السماء مـدرارا ثلاثة او اربعـة اشهـر متتالية في السنة . افيوجد مثل هذه الاحـوال في جزيرة العرب او شرقيها وغربيـها الا في السنـد والدكن اي الساحل الغربي والجنوبي للهند ؟ ويخيل الي ان قول الزبير بن بكار السالـف الذكـر (بأن سمهر كانت قرية بالحبشة) يخفـي وراءه حقيقـة ثابتة وهي ان العرب في وقت من الاوقات اتخـذوا من الحبشة بديلا من الهند ، مرجعهم المفضـل ،

---

(83) لم استطع الجزم بالاصل الهندي الا انه لفت نظري الكلمتان التاليتـان المعبرتـان عن الاعتـدال والصلابـة : SAMA, even, level... straight - Williams : Sanskrit-English Dictionary, p. 1066. KHARA, hard, harsh, rough... dense - Ibid., p. 74

(*) هذا ونجد مثالا آخر لهذه الاسطورة بالذات فيما يتعلق بكلمة « السندرة » (انظر ص 68 الآتية) وقد ادرك القتيبي ان القول « السندرة امراة كانت تبيع القمح وتوفي الكيل » مجازفة لجأ اليها الذين وقفوا حيارى امام كلمة اعجمية الفـوا استعمالها وعرفوا مدلولها لكن لم يدروا ما اصلها .

ولا ننسى كيف ان ياقوت خلط بين كلمه « القلعة » وبين معدن القصدير بالاندلس لاسباب متشابهة (*)

اذن اصل كلمة « قنا » نفسها معربة من الهندية « ganna » البراكرتية « gandoo » السنسكرتية « gandaka » (*)

الوشيج :

اذا كان « الخطي » هنديا فهل من الغريب ان يكون « الوشيج » ـ الذي لا ينبت الخطي الا هو ـ هنديا ايضا ؟ ان اصل هذه الكلمة هو (Vansha) والجيم في الآخر علامة العجمة لا غير . وقد عهدنا العرب دائما يظهرون ملكة قوية للملاحظة الطبيعة بالدقة والاتقان وان كلمة الوشيج وما اشتق العرب منها الا دليل على التأثر بالطبيعة واستخلاص المعاني العامة من مظاهرها فان كل من اتفق له أن يتمتع بنظرة الى منبت القنا ليقدر تمام التقدير ان أهم ما يروع المرء من أشجاره هو التفاف سيقانها وتعانق أغصانها ، ومنه قولهم الوشيج بمعنى القرابة ، والوشج بمعنى الاشتباك . واذا كان احد في شك من هذا فلينظر الى كلمة « البيش » (84) لا ريب في انها هندية معربة اصلها (Visha/Bisa) استخلص العرب من شجرته معنى الخضرة والنضارة فقالوا « بيش الله وجهه » ولاحظوا ايضا ان شجرة البيش شديدة الثبات والتأصل فقالوا « اباش الشجرة » .

القسي

اما فيما يتعلق بالقسي ، فقد كفانا الجاحظ مؤنة البحث عن اصلها بقوله: «وكل قوس بندق فانما جيء بقناتها من بروص ومدح ببريها وصنعتها عصفور القواس . وقال الرقاشي :

انعت قوسا نعت ذي انتقاء
جاء بها جالب بروصاء

بعد اعتيام منه وانتصاء
كافية الطول على انتهاء
مجلوزة الأكعب في استواء
سالمة من آبن السيساء

(البيان والتبيين 3/93 ـ 94)

وانظر ايضا الى قول آخر للرقاشي في صفة القناة التي تبرى منها القسي :

من شقق خضر بروصيات
صفر اللحاء وخلوقيات

جدلن حتى اضن كالحيات
رشائقا غير مؤبنات

انفهن متمطرات
عمرو بن عصفور (85) على استثبات

(المصدر نفسه 3 / 71)

لا يخفى ان بروص (كما وردت الكلمة مضبوطة في القطعة الثانية والتي جعلها الشاعر « بروصاء » ـ « بروضاء » بالضاد المعجمة تحريف من الكاتب ليس الا ـ في القطعة الاولى لضرورة الشعر) كانت ميناء هاما على ساحل كجرات فوق بمباي حاول العرب عدة مرات ، قبل فتحهم للسند وابان حكمهم لها ، الاستيلاء عليها (راجع فتوح البلدان للبلاذري) وهي لا تزال مدينة معروفة باسمها القديم « Bharoch »

والشريج بمعنى العود يشق منه قوسان (انظر قول الشماخ : « شرائج النبع براها القواس ») هي « chari » بالجيم علامة العجمة بآخرها . ومنه يقال لخطى نيري البرد شريجان .

(*) انظر ص 34 السابقة .

(*) Nainar, S. Muhammad Husayn : Arab Geographers' Knowledge of Southern India, Madras, 1942,p. 193, note 29, vide Platts : Hindustani Dictionary.

(84) « البيش وهو نبت لا يوجد الا بالهند » كذا في الآثار للقزويني ص 85 .

(85) لو كان سمهر مثقفا للرماح أو بياعا لها لكان من الواجب ان نظفر من شاعر من الشعراء القدماء باشارة صريحة الى ذلك مثل ما نجد امامنا بخصوص عمرو بن عصفور ، ولكنا بخلاف ذلك نراهم، حسبما اعرف ، دائما يذكرون « السمهرية » و « الردينية » و « رماح ردينة » (الشماخ ، ديوانه ص 98) من غير ان يزيدوا شيئا ثم يجيء اللغويون فيفسرون هذه النسبة كما بدا لهم بدون أي سند على نحو ما فصلنا الكلام عنه .

وصفوة القول ان قضب الهند على العموم هي التي كان يضرب بها المثل كما يقول الشاعر :

قضب الهنـد والقنـا أخدانـك
والمقاديـر فى الـورى أعوانـك

(النويري 54/2 . وجاء فى كنايات الجرجاني 63 ان الشاعر هندي) .

القطـــن ومنسوجاتـــه

لا شك ان الهند هي الموطن الاصلي لشجرة القطن الا ان الشجرة الهندية الاصلية كانت طويلة العمر كما يبدو من اقوال القدماء . اما الشجرة التى تزرع سنويا فالظنون انها نتجت على أيدي العرب فى العراق وسوريا والبلاد المجاورة . على كل حال اقترنت هذه الشجرة بالعرب الى حد انها هي والسكر والدين ربما اعتبرت المقومات الثلاثة لحضارتهم فى نظر الاوربيين (Watt, p. 569) هذا وقد اشتهرت الهند منذ قديم الزمان بالجودة ودقة منسوجاتها التى كان الثوب منها يدخل فى حلقة خاتم ، كما شهد بذلك سليمان التاجر (سلسلة التواريخ ص 30) ، ويذكر ابن خرداذبه (ص 70) ان الثياب القطنية المخملة كانت تجيء من الهند كما ان « الشال » و « الشيت » و « الفوطة » من الاسماء الهندية المعربة .

وبالاضافة الى منسوجات القطن امتازت الهند ايضا بصناعة الثياب من الحشيش (ابن خرداذبه ص 70) .

الكـــلاب السلوقيـــه

يذكر عند العرب ذكر الكلاب « السلوقية » وهي على حد قولهم منسوبة الى ساوق قرية باليمن الا انهم لا يستقرون على رأي بل يظهرون كأنهم يحومون حول (Sileucia) = سلقية التى يصفونها بمدينة الروم (معجم البكري) ومدينة اللان ومدينة بالشام (البلدان لياقوت واللسان) . لكن الجدير بالاهتمام تصريح القزويني بأن « الكلاب يسفدها الذئاب (86) فتأتي بالكلاب السلوقية » (الآثار ص 29) . وذلك يذكرنا بمشاهدة الاسكندر بارض الهند وبصحبة الملك (Saubhuti) لكلاب لا ترخى قبضتها على الاسد حتى ولو قطعت ارجلها . قيل انها من نتاج الكلاب من النمور (87) ، ثم نذكر ايضا ان اهل بابل كانوا يستوردون الكلاب من الميناء الهندي المعروف (Barygaza) = بروص (88) كما نعرف ان الموكب التاريخي لبطليموس Philadelphus كان حافلا بالكلاب الضواري الهندية الى جانب النساء الهنديات والتوابل الهندية ؛ وبعد هذا كله نعثر على قول ابن رسته الآتي فى معرض الكلام عن ملوك الهند : ـ

« وبعده ملك يقال له نجابه (؟) وهو شريف فيهم وبلهرا الملك يتزوج فيهم ؛ وهم السلوقيون ولا يتزوجون الا فيهم لشرفهم **وهذه الكلاب السلوقية يقال انها وقعت من بلادهم** ولهم الصندل الاحمر فى بلادهم وغياضهم .. الخ » (89) .

---

(86) من طرائق النساخ ان « الذئاب » تحولت الى « الثعالب » حيث جاء فى صبح الاعشى 42/2 نقلا عن المقر الشهابي ابن فضل الله ان السلوقية « مولدة بين الثعالب والكلاب » !!

(87) Cam. Hist. of India, 1/407

(88) Heeren, 2/207

(89) الاعلاق النفيسة ص 135 .